مفھوم الشعر عند قدامة من خلال كتابه نقد الشعر:

لیس من الیسیر أن یحدِّد الدَّارس في العصر الحاضر مفھومَ الشِّعر عند أحد أعلام النَّقد أو الإبداع من القُدماء؛ ذلك أنَّ أبسط لَبِنة في المفھوم - وھوالتَّعریف - قد ورد بصِيغ مختلفة عند العدید منھم؛ تبعًا لعصورھم وثقافتھم وتصوُراتھم؛ حیث تفاوتَت ھذه التَّعریفات؛ ما بین مركِّزة على الوزن والقافیة، وما بین مُبرزة للكمِّ والكیف، وأخرى للقَصد والنیَّة، وما بین مؤكِّدة للنَّظم والتَّصویر... وھكذا.
ومن خلال ھذه المنطلَقات المدخلیَّة یبدو لنا مدى الصعوبة التي تَكمُن في
ھذه الدراسة؛ لاستنباط مفھوم الشعر لدى ناقدٍ أو مبدع أو شاعر.
فھا نحن أمام علَم من أعلام النقد، محاولین تحدیدَ مفھوم الشعر عنده،
واستخراجَ بعضِ مقاییسَ یجعل الكلام الموزون شعرً ا لدیھ.
وھذا العلَم ھو قُدامة بن جعفر، وعمَلُنا ھذا مؤسَّسٌ على كتابه "نقد الشعر"،
"الذي یُعدُّ أوَّ ل أثر نقديٍّ عِلميٍّ مشھور في الأدب العربي".

الفصل الأول: قدامة بن جعفر، وكتابه نقد الشعر:
المبحث الأول: المؤلف في سطور:
ھو قدامة بن جعفر بن زیاد البغدادي، ولد في البصرة في الثلث الأخیر من
القرن الثالث الھجري بالتحدید سنة: 260 أو 276 ھجریة.
 وأدرك ثعلبًا والمبرِّ د وابن قتیبة وطبقتَھم، ونشأ في بغداد، كان نصرانیا ثم
أسلَم على ید الخلیفة العباسيِّ المكتفي با .
وتوفِّي عام: 337 ھجري، الموافق سنة: 948 میلادیة.
قرأ واجتھد وبرَ ع في صِناعتي البلاغة والحساب، وتأثَّر بالمنطق والفلسفة
وھذا مما یبدو في تصانیفه، كما برع في اللغة والأدب والفقه والكلام.
وكان أحدَ رجُلین عرَّ ف علم البدیع، ورسَم طریقته وأوضح نھجَه، وأبان
للناس سبیلَه، له طریقةٌ فذَّة في التألیف، تجمع إلى غزارة المادة عمق التفكیر،وكانت ثقافته ذات مصدرَین؛ أحدھما عربي تنطق به كلُّ صفحة من صفحات مؤلفاته، والثاني یوناني یتجلَّى أكثر ما یتجلى في كتابه "نقد الشعر"، الذي بدا فیه أثرُ كتاب "الخطابة" لأرسطو.
المبحث الثاني: منھج قدامة في كتابھ "نقد الشعر":
ینطلق قُدامة من تعریفه للشِّعر إلى حَصر العناصر الأولیة التي یتكوَّ ن منھا
الشعر، وھي: اللفظ والوزن، والقافیة والمعنى.
وھو یرى أن الشعر - شأنه شأن أي صناعة أخرى - یعتوره طرَ فان؛ الطَّرَ ف الأقصى ھو الجودة، والطرَ ف الأدنى ھو الرَّ داءة، وبین ھذین الطرَ فین تأتي حالُ التوسط بین الجودة والرداءة، وھو عندما یحدِّد تعریفًا للشعر یَنظر في ھذه العناصر المذكورة بطریقة شكلیةٍ محضة، فیحدِّد الصفات التي یصل الشعر بھا إلى أقصى درجات الجودة، ثم یحدِّد بعد ذلك العیوبَ التي بھا ینحدر الشعرُ بھا إلى أدنى درجات الرداءة.
فیَرى قُدامةُ أنھ یمكن إحداثُ تراكیبَ وائتلافٍ بین ھذه العناصر الأربعة
للشعر على ھذا النَّحو:
♦ اللفظ مع الوزن.
♦ اللفظ مع المعنى.
♦ الوزن مع المعنى.
♦ القافیة مع المعنى.
ویحاول النظر في كلِّ عنصر على حدةٍ، فیبیِّن علامات الجودة فیھ، ثم ینتقل
إلى بیان المحسِّنات العامة للمعاني التي یورد فیھا طرَ فًا من ألوان البدیع،
ویضع لھا مصطلحات، ثم ینتقل بعد ذلك إلى بیان موجبات الحُسن أو الجودة
في العناصر المركَّبة، حتى انتھى من بیان النُّعوت، فانتقل إلى بیان العیوب
وأوضحَھا في العناصر المفرَ دة أولاً، ثم بعد ذلك أوضح العیوب التي تقع
في المعاني عامَّة، ثم بعد ذلك ذكر بیان العیوب في العناصر المركبة.
المبحث الثالث: قیمة كتاب نقد الشِّعر عند العلماء:
لما نُشِر الكتاب وطارَ ت شھرتھ في كلِّ مكان، أحدَث ضجَّة عالیة في عالم الأدب، وتناولھ الأدباءُ والنقاد بالرُّ دود والشُّروح.
فاختلف موقف العلماء تجاه نقد الشِّعر لابن جعفر، وھو كالتالي:
ا - فمِنھم مَن أثنَوا علیھ وتصدَّوا لنُصرته، من أمثال عبداللطیف البَغدادي
في تألیفھ "كشف الظُّلامة عن قدامة"، وابن أبي الإصبع في كتابه"المیزان".
ب - ومنھم من رفَضوا رأیه الذي تبنَّاه في كتابه مثل الآمدي، وألف كتابًا
سماه "تبیین غلط قدامة"، وابن رَ شیق في كتابھ "تزییف نقد قدامة".
ج - ومن النُّقاد - فیما یبدو لنا - من كان لھم اتجاهٌ وسطي؛ لأن ھذا الكتاب
بناءٌ ھندسي انشغل أولاً بتقسیم الأجزاء والأركان، فبعد أن أتم ھذا التقسیم
ملأَ ھذه الأركانَ بنقد الشعر.
ومِن ھنا یَكمُن العیب الأساسيُّ والمآخذ الرئیسة؛ حیث نقد الشعر بعیدًا عن
الشعر، فھو لم یقم بنقده للعمل الشعريِّ انطلاقًا مما توجبھ الظاھرةُ نفسُھا،
ولكنھ أقام بناء نقدیا بعد ذلك أقحَم فیھ الشِّعر، ولعل ھذه العملیة ناتجةٌ عن
تأثُّره بالفلسفة والمنطق؛ ولھذا قد یكون عملُ قدامة مفیدًا في جزئیاته المتفرِّ قة
لعلماء البلاغة، دون علماء النقد.
الفصل الثاني: مفھوم الشعر عند قدامة، ومكوناته:
المبحث الأول: تعریف الشِّعر:
إنَّ قدامة أولى أھمیةً كُبرى في تعریفه للشعر؛ حیث یؤلِّف عنده مدخلاً
یضبط تصوُّ ره المعیاري، لمعرفة جید الشعر من ردیئه، ویَرى أن الأمر لم یكن واضحًا لدى الناس، ومن ھنا یَنطلق لتأسیس نظریتھ النقدیَّة؛ لیعرِّ فالشعر ولیجعل له مقیاسًا تمییزیا؛ فالحكم على شيء فرعٌ عن تصوره.
"إنَّ أول ما یُحتاج إلیھ في العبارة عن ھذا الفنِّ معرفةُ حدِّ الشعر الحائز له
عمَّا لیس بشعر، ولیس یوجد في العبارة عن ذلك أبلغُ ولا أوجزُ - مع تمام
الدلالة - مِن أن یُقال فیه: إنه قولٌ موزون مقفى یدلُّ على معنًى".
وقُدامة یثیر انتباه الآخرین على الاھتمام والعنایة، بما سیقدِّمه حدا معرفیا
واضحًا للشعر، قلَّما یوجد للشعر مثله، وذلك حینما عرَّ فه بقوله: "إنه قولٌ
موزونٌ مقفى یدلُّ على معنى".
ثم شرَ ح ھذا التعریف:
"فقولُنا: (قول) دالٌّ على أصل الكلام الذي ھو بمنزلة الجنس للشِّعر.
وقولنا: (موزون) یَفصِ لھ مما لیس بموزون؛ إذ كان من القول موزونٌ وغیر
موزون.
وقولنا: (مقفى) فصلٌ بینَ ما لھ من الكلام الموزون قوافٍ، وبین ما لا قوافيَ له ولا مَقاطع.
وقولنا: (یدل على معنى) یَفصل ما جرى من القول على قافیة ووزنٍ، مع
دلالةٍ على معنًى مما جرى على ذلك من غیر دلالة على معنى؛ فإنه لو أراد مریدٌ أن یَعمل من ذلك شیئًا على ھذه الجھة لأمكَنه وما تعذَّر علیه".
نلاحظ في ھذا التعریف أنه ركَّز على مستویَین:
المستوى الأول: المكونات الشكلیَّة للشعر.
المستوى الثاني: المعاني.
ولھذا لا یكون القول الموزون شعرً ا انطلاقًا من أحَد المستویین، فلا بدَّ من اعتبارھما معًا؛ ولذا رفَض الاحتكامَ إلى مادة المعنى في ذاتھا.
یتنزَّ ل المعنى عنده في مستوى الشكل الذي یشمل العناصر المفردة
والمركَّبة، وھو بذلك یغدو مادةً غیرَ مفارِ قة لشكلھا، ومستوى المعنى في
ذاته حیثُ یَبحث من منظور قیمتھ وغایتھ، وفكرة الجودة والرداءة تَنبع من
ھذه البابة.
المبحث الثاني: معاییر الجودة في الشعر
ھذه المعاییر عبارةٌ عن شرائطَ تشمل كلَّ ما ھو لفظي؛ من كلمة وتركیب،
ووزنٍ وقافیة، وما ھو معنوي؛ من شكل القصیدة والتحامِ الأجزاء، والتزامِ
النُّعوت واجتنابِ العیوب.
وإذا أنعَمنا النظر في ھذه المواصفات كلِّھا، یمكن لنا تقسیمُھا إلى نوعین
رئیسَین، منه نوعٌ متعلق بالشكل، وآخرُ متعلِّق بالمعنى.
1- عناصر الجودة الشكلیة:
أ - نعت اللفظ:
ویَشترط في جودة اللفظ الفَصاحة والسماحةَ وخُلوَّ ه من البشاعة؛ كقول
الشاعر:
 ولمَّا قضَینا من مِنًى كلَّ حاجة
 ومسَّح بالأركانِ مَن ھو ماسحُ
 وشُدَّت على دُھمِ المَھارى رِ حالُنا
 ولم یَنظُرِ الغادي الذي ھو رائحُ
 أخَذْنا بأطرافِ الأحادیثِ بینَنا
 وسالَت بأعناقِ المَطِيِّ الأباطحُ
ب - نعت الوزن:
واشتَرط فیه أن یكون سھل العروض، وجعَل من نعوت الوزن: الترصیع؛
أي: تصییرَ مقاطعِ الأجزاء في البیت على السَّجع، أو شبیھه به، أو من جنس واحدٍ في التصریف،

ج - نعت القوافي:
ویشترط فیھا أن تكون عَذبةَ الحرف سلِسةَ المَخرَ ج، وكذلك جعل من نُعوتھا التَّصریع وھو إلحاق العَروض بالضَّرب وزنًا وتَقفیة، سواءٌ بزیادة أونقصان.
ویَرى قدامةُ أنَّ امرَ أَ القیس أكثرُ مَن یستعمل ذلك، فمنھ قولُھ:
 قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حبیبٍ ومَنزلِ
 بسِقْطِ اللَّوى بین الدَّخولِ فحَومَلِ
وبعده بأبیاتٍ قال:
 أفاطِمُ مَھلاً بعضَ ھذا التدلُّلِ
 وإن كنتِ قد أزمَعْتِ صَرمي فأجمِلي
وبعده بأبیاتٍ قال:
 ألا أیُّھا اللیل الطویلُ ألا انجَلي
 بصُبحٍ وما الإصباحُ مِنك بأمثَلِ
2- عناصر جودة المعنى:
أ - صحَّة المعنى:
المراد بالصحَّة: وضعُ كلمات في قوالِبَ ملائمةٍ للمحلِّ والحال، فعلى الشاعر
مراعاةُ نفسیة المتلقِّي، وأن یتجنَّب الإحالة والإغراق المفضِ یَین إلى التَّشویش
على المتلقِّي، وعدم تمكُّن المعنى من ذھنھ.
فكلما أغرَ ب الشاعر في معانیھ، وابتعَد عن الواقع بمسافة بعیدة، وقع في
الإحالة، وابتعد عن الصحَّة.
ب - التناسب الغرَ ضي:
ویَعني به مطابقة الغرَ ض للمعنى، واختیارَ الألفاظ التي تُلائم الغرض الذي
یقول فیه، وتتَّسم بالابتكار، والسَّبكِ الجیِّد.
ج - قضیة المبالغة والغلو:
فھذا القسم لھ علاقة وطیدة بأخوَ یھ؛ ولذا لم آتِ بمثالٍ لھما، ومن خلال
المعالجة لھذه الظاھرة ستتضَّح ھذه العلاقة.
والمبالغة والغلوُّ مرتبطة بالصِّ دق والكذب في الشعر.
لقد صنَّف الدكتور العیاشي السنوني - عند تناولُھ ھذه القضیةَ - مواقفَ
العلماء إلى ثلاثة:
الاتجاه الأول:
فھؤلاء یَعتقدون أحسَنَ الشعرِ أصدَقَھ؛ كبیتِ حسانَ بنِ ثابت:
 وإنَّ أشعَر بیتٍ أنت قائلُه
 بیتٌ یُقال إذا أنشدتَھ صدَقا
والمبدِع وإن كان یَنظم في إطار الصِّدق یُبدي من المھارة والاقتِدار على
مُطاوعة القول ما یَجعل مِن قوله فنا رائعًا.
ومن الذین نحَوا ھذا المنحى الآمديُّ صاحب "الموازَ نة بین أبي تمَّام
والبُحتري".
الاتجاه الثاني:
والشعر عندھم أكذَبُه؛ بمعنى أنَّھم یختارون المبالغة والغلوَّ ، ومن الذین
شایَعوا ھذا المذھب قدامةُ بن جعفر، وھو خیرُ مِن استلھَم البیوتیقا الأرسطیَّة،واستثمرَ ھا في تناول قضایا الشِّعر.
الاتجاه الثالث:
أصحاب الوسطیَّة، ویرَ ون أن أحسن الشعر أقصَدُه، ومِن الذین نوَّ ھوا بھذه الرؤیة الجاحظ، والمرزوقي، والقاضي عليُّ بن عبدالعزیز الجرجاني.

 **محور اختلاف النُّقاد في ھذه المسألة:**
بعد ھذه الجولة السردیَّة لبیان مواقفِ العلماء للقضیَّة، یمكن الوقوفُ لتحدید
مفھوم الصِّدق والكذب، والقصد منھما عند أھل العلم الأدبيِّ .
إن الحدَّ المشھور للصِّدق ھو مُطابقة الواقع، وللكذب مخالفةُ الواقع.
ھل الصِّ دق یُنظر إلیه بمنظور فنِّي أو سلوكي أو واقعي؟
والكذب واقعي أو سلوكي أو فني؟
والواقع الذي یعیشه عامة الناس ویعرفونه، ھل ھو مختلف عن دنیا الشعراء؟
فلنَقرأ لقدامة الذي یُدافع عن موقفه من خلال تحلیله بیتَ حسان بن ثابت:
 لَنا الجفَناتُ الغُرُّ یَلمَعن بالضُّحى
 وأسیافُنا یَقطُرنَ مِن نَجدةٍ دَما
وذلك أنَّھم یرَ ون موضع الطَّعن على حسان في قولھ: (الغُر) وكان ممكنًا أن یقول (البِیض)؛ لأنَّ الغرَّ ة بیاضٌ قلیل في لونٍ آخَر غیره، وقالوا: فلو قا) : البِیض) لكان أكثرَ بیاضًا من الغرَّ ة، وفي قوله: (یَلمَعن بالضحى) ولو قال: )بالدُّجى) لكان أحسَن، وفي قوله: (وأسیافُنا یَقطُرن من نجدةٍ دَما) قالوا: ولوقال (یَجرین) لكان أحسن؛ إذ كان الجريُ أكثرَ من القطر.
ومَن أنعَم النظرَ علم أنَّ ھذا الرد على حسان من النابغة كان أو من غیره -
خطأٌ، وأنَّ حسَّانًا مصیبٌ؛ إذ كان مطابقةُ المعنى بالحقِّ في یده، وكان الردُّ
علیھ عادلاً عن الصواب إلى غیره.
فمن ذلك أنً حسانًا لم یُرد بقوله: (الغر) أن یجعَل الجِفانَ بِیضًا، فإذا قَصر
عن تصییر جمیعھا بیضًا نقص ما أراده، لكنه أراد بقوله (الغر) :
المشھورات؛ كما یُقال: (یومٌ أغَرُّ ) (ویدٌ غرَّ اء)، ولیس یُراد البیاض في شيءٍ من ذلك، بل یراد الشھرة والنباھة.
وأما قول النابغة في (یلمعن بالضحى) وأنھ لو قال (بالدُّجى) لكان أحسن من
قوله: (بالضحى)؛ إذ كل شيء یلمَع بالضحى، فھذا خلافُ الحق وعكس
الواجب؛ لأنھ لیس یَكاد یلمع بالنھار من الأشیاء إلا الساطعُ النور الشدید
الضِّیاء، فأمَّا اللیل فأكثرُ الأشیاء مِن أدنى نور وأیسرِ بَصیصٍ یلمع فیه.
فمِن ذلك الكواكب وھي بارزةٌ لنا مقابلة لأبصارنا، دائمًا تلمع باللیل ویقلُّ
لمَعانھا بالنَّھار حتى تخفى، وكذلك السُّرُ ج والمصابیح یَنقص نورھا كلَّما
أضحى النھار، وفي اللیل تَلمعُ عیون السِّباع لشدَّة بصیصھا وكذلك الیراع
حتى تخال نارً ا.
فأما قول النابغة أو من قال: إن قوله في السیوف: (یجرین) خیرٌ من قوله:
(یقطرن)؛ لأنَّ الجري أكثرُ مِن القطر، فلم یُرد حسان الكثرة وإنما ذھبَ إلى ما یلفظ به الناسُ ویعتادونه من وصفِ الشجاع الباسل والبطل الفاتك بأن یقولوا: سیفه یَقطر دمًا، ولم یُسمَع: سیفه یَجري دمًا، ولعله لو قال: یجرین دمًا عدَل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد إلى ما لم تَجرِ عادةُ العرب بوصفه... فأقول: إن الغلوَّ عندي أجودُ المذھبین، ومن أنكرعلى مھلھل والنمر وأبي نواس قولھم المقدم ذكره، فھو مخطئ، لأنھم
وغیرھم - ممن ذھب إلى الغلو - إنما أرادوا به المبالغةَ والغلو بما یَخرج
عن الموجود ویَدخل في باب المعدوم؛ فإنما یرید به المثل وبلوغ النھایة في النَّعت، وھذا أحسنُ من المذھب الآخر.
وللاستحسان الشعريِّ حصَر قدامةُ الأغراض الشعریَّة في ستة:
المدح، والھجاء، والنَّسیب، والمراثي، والوصف، والتشبیه .
المبحث الثالث:
معاییر الرداءة في الشعر
والمقصود منھا مخالفةُ الشاعر قوانینَ الجودة وشرائطَھا، وھذه المعاییر
تسمَّى بالعیوب؛ فمِنھا ما ھو متعلِّق باللفظ، ومنھا ما ھو متعلق بالمعنى.
1- عناصر العیوب اللفظیة:
ویُقصد بالعیب اللفظي أن یكون ملحونًا وجاریًا على غیرِ سبیل الإعراب
واللغة... وأن یَرتكب الشاعرُ فیھ ما لیس یُستعمل ولا یُتكلَّم بھ إلا شاذا
وعناصر العیب لھا ارتباط وثیقٌ باللفظ المستعمَل والوزن العَروضيِّ .

أ - عیب اللفظ:
المعاظلة:
وھي التي وصَف عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه زھیرً ا بمجانبَتِه لھا أیضًا؛ حیث قال: وكان لا یُعاظِل بین الكلام.
وسألتُ أحمد بن یحیى عن المعاظلة فقال: مُداخَلة الشيء في الشيء، یقال:
تعاظَلَت الجرادتان، وعاظل الرجلُ المرأة إذا ركب أحدُھما الآخَر، وإذا كان
الأمر كذلك فمِن المحال أن نُنكر مُداخلةَ بعض الكلام فیما یُشبھه من وجه،
أو فیما كان من جنسه، أمَّا النَّكیر فإنما ھو في أن یُدخل بعضه فیما لیس من جنسه وما ھو غیر لائق به، وما أعرف ذلك إلا فاحشَ الاستعارة؛ مثل قول الشاعر:
وما رقَدَ الوِلدانُ حتى رأیتُه
 على البكرِ یُمریه بساقٍ وحافرِ
ویعلِّق ابن جعفرٍ على الشاعر بقوله: "فسمَّى رِ جل الإنسان حافرً ا؛ فإن ما
جَرى ھذا المجرى من الاستعارة قبیحٌ لا عذر فیه".
ب - عیب الوزن:
التخلُّع:
وھو أن یَكون قبیحَ الوزن قد أفرط تزحیفه وجعل ذلك بنیةٍ للشِّعر كلِّه حتى
میله إلى الانكسار، وأخرجه من باب الشعر الذي یَعرف السامعُ له صحةَ
وزنه في أوَّ ل وھلة إلى ما یُنكِره حتى یُنعم ذوقه أو یعرضه على العَروض فیصح فیه؛ فإنَّ ما جرى ھذا المجرى من الشعر ناقصُ الطَّلاوة قلیل الحلاوة.
مثل عَبید بن الأبرص في قوله:
 والمرءُ ما عاش في تكذیبٍ
 طول الحیاةِ له تَعذیبُ
فیقول ابنُ جعفر معلِّقًا علیه: فھذا معنًى جِّید ولفظ حسَن، إلا أنَّ وزنه قد ضعف